قراءة نحوية لمعايير نقدنا القديم

د. لخضر روبحي
جامعة المسيلة

ملخص: لقد كان النقد العربي في بداية نشأته عماده الذّوق، لكن بظهور الحركات العلمية بعد بزوغ نور الإسلام اصطبغت بعض جوانبه بنزعة علمية غايتها فرز جيده من رديئه. وكانت اللغة حاضرة بصورة لافتة للنظر عند طائفة من اللغويين النّقاد إلى جانب تأثرهم بالجانب الفنيّ الذي يمليه النص.

هذه الإشارات اللغوية أسهمت في تطوّر فنّ النقد وأضفت على النص عمقا آخر في الذوق والتحليل كما جمعت بين اللفظ والمعنى إذ العبرة ليست في اللفظ في حدّ ذاته وإنّما بارتباطه بالمعنى ودخولهما في سياق لغوي. وعليه فإنّ هذا الموضوع من شأنه أن يكشف عن الجوانب المضيئة في تراثنا النقدي، وإبراز جهود نقّادنا ومناحيهم في تناول بعض قضايا هذا التراث.

مقدمة: النقد ظاهرة تقترن بنضج عقلي، قوامه التعليل. وقد تمثلت بذوره الأولى عند العرب في التأثر بالشعر إعجابا أو إعراضا، «لأنّ الثناء على قصيدة إنّما يعني الإحساس بها من خلال تقويم معيّن " [1]

وملكة النقد عند الجاهليين "كانت مبنية على الذوق الفطري لا الفكر التحليلي" [2] وهذا يعني أنّ نقدهم قوامه الذوق والفطرة التي تتأثر بما تسمع من قول، فتصدر الحكم عليه، أما التعليل فكان يعرض أحيانا على استحياء، فما أسرع ما يتأثر السامع ويندفع إلى التعميم في الحكم، ويجعل من الشاعر أشعر الناس .

ولعلّ أبرز ما يوضّح هذه السمات تلك الأخبار المروية عن حادثة تفضيل النابغة للخنساء على حسان . فالنابغة الذبياني وهو كبير شعراء الجاهلية، وأحد المحكّمين في سوق الشعر، كان يقوم مقام القاضي في الحكم على الشعراء وفي أخباره التي أوردها له أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني، أنّه كانت تضرب له قبّة حمراء من أدم، بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء، فتعرض عليه أشعارها. فمن نوّه به وحكم له، طارت شهرته في الآفاق، وكان في أثناء ذلك يبدي بعض الملاحظات على معاني الشعراء وأساليبهم.

ويقال إنّه فضّل الأعشى على حسان بن ثابت، وفضّل الخنساء على بنات جنسها، وفضّل شعرها على شعر حسان. فكانت ثورة حسان عليه إذ قال له: واللّه لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدّك. فقال له النابغة حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطــرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محــرّق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة: "إنّك لشاعر لولا أنّك قلّلت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. وفي رواية أخرى : فقال له : إنّك قلت : الجفنات فقلّلت العدد، ولو قلت الجفان لكان أكثر. وقلت يلمعن في الضّحى، ولو قلت

يبرقن بالدّجى لكان أبلغ في المديح، لأنّ الضيف بالليل أكثر طروقا. وقلت يقطرن من نجدة دما، فدلّلت على قلّة القتل، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم. وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسرا منقطعا" [3].

ومن خلال هذه التعليقات النقدية المأثورة للنابغة نجده قد عاب عليه استعمال جمع القلّة وهو بصدد الافتخار، والسياق يقتضي التكثير والمبالغة وهما من مميزات غرض المدح، "فإحداث العلاقات بين الجفنات واللمع وبين الأسياف والقطر بحيث أسند اللمع إلى الجفنات والقطر إلى الأسياف – وإن كان مقبولا في عرف اللغة - إلاّ أنّ المقام اقتضى المبالغة والكثرة فناسبه تعليق اللمع بالجفان والقطر بالسيوف وليس كما أوردهما الشاعر" [4].

وإذا ما درسنا هذا الخبر فإنّنا سنلاحظ حتما غنى في الدلالة النقدية فالنابغة اختار بعض النماذج من شعر حسان، والاختيار نوع من النقد. ونقده في عدم مطابقة للنموذج الفني حيث افتخر ولم يحسن الافتخار، لأنّه أورد كلمات غيرها أقرب وأوسع مفهوما، فقد ترك الجفان والبيض والإشراق والجريان واستعمل الجفنات والغر واللمعان وهي دون سابقتها فخرا. فالبيت فيه امتحان لقدرات الشاعر على إدراك اللفظة الصحيحة في مكانها الصحيح وتؤدي المعنى بشكل أقوى . وهكذا "كان الناقد في العصر الجاهلي، يطالب الشاعر بمطابقة النموذج الفني وعدم الشذوذ عنه، وهذا ما كان يحتم عليه إيجاد علاقة مباشرة حرفية بين الفن والواقع، بين اللفظ الدّال والمعنى المدلول" [5].

وهي تؤكد في جملتها على حسن استعمال الألفاظ وقوة الصياغة وجودة السبك. وهذه الوقائع النقدية البسيطة، هي المبادئ الأولى التي أسست لعلم النقد العربي، "كانت تحمل إذن في ثناياها أول صور النقد من العصر الجاهلي. وهي برأينا محاولات أوّلية ساذجة. استدعتها مناسبات الشعر بالمواسم والأسواق

والمجامع والمحافل الحافلة، وكان الحكام النّاقدون يبثون آراءهم على ما تلهمهم طبائعهم الأدبية، وسليقيهم العربية، وأذواقهم الشاعرة "[6].

وممّا لاشك فيه أنّها أوحت للنقاد العرب جعل النقد الأدبي يتمحور حول ثنائية الموضوعين الأساسيين : اللفظ والمعنى والشكل والمحتوى والدّال والمدلول.

وقد قضى النقد الأدبي طيلة العصر الجاهلي "يدور في مجال الانطباعية (التأثرية) الخالصة، والأحكام الجزئية التي تعتمد المفاضلة بين بيت وبيت أو تميز البيت المفرد أو إرسال حكم عام في الترجيح بين شاعر وشاعر، إلى أن أصبح دارس الشعر في أواخر القرن الثاني الهجري جزءا من جهد علماء اللغة والنحو، فتبلورت لديهم قواعد أوّلية في النقد، بعضها ضمني، وبعضها صريح ولكنّها كانت في أكثرها ميزات القرون السابقة" [7].

وإذا كان هناك من الباحثين من يعتبر هذه الحادثة النقدية هي من وضع اللغويين في القرن الرّابع الهجري، تاريخ وضع كتاب الأغاني التي وردت فيه لأنها تتحدث عن جموع القلة وجموع الكثرة بينما لم تعرف ثقافة العرب ذلك إلاّ بعد زمن من وضع النحو في القرن الثاني الهجري، فإننا نرى أنّ ذكر هذه المصطلحات النحوية" إنما يعود إلى لغة العلماء في ذلك العصر" [8]. أمّا مسألة التفريق بين العدد الذي يدلّ على كثرة والعدد الذي يدلّ على قلّة. فهي تعود إلى فصاحة القوم وسليقتهم اللغوية.

ومما يروى أيضا أنّ ابن عباس قال : قال لي عمر ليلة مسيره إلى الجابية في أول غزوة غزاها . هل تروي لشاعر الشعراء ؟ قلت : ومن هو ؟ قال الذي يقول:

ولو أنّ حمدا خلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت: ذلك زهير. قال: فذلك شاعر الشعراء. قلت : وبم كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنّه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحدا إلا بما فيه.

فزهير في نظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه سهل العبارة لا تعقيد في تراكيبه ولا وحش في ألفاظه، ومعانيه بعيدة عن اللفظ والإفراط في الثناء الكاذب. ونلمس هنا أن ملاحظات عمر ليس جزئية كما كان الأمر في نقد العصر الجاهلي الذي اقتصر على نقد الشكل تارة والمضمون تارة أخرى، ونادراً ما يعنى بالشكل والمضمون كما نلاحظ عند عمر بن الخطاب الذي تناول بالتقييم شعر زهير من حيث المبنى والمعنى .

النقد الأدبي بعد نشأة الدراسات اللغوية:

حركة النحاة : كثر النقد لدى النحويين وكثرت مسائله، وتنوعت فيه وجوه الرأي التي استقرت في مذهبين :

1. مذهب أهل البصرة، ومن متقدمي نحاتهم : عنبسة الفيل، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر الثقفي، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، وحماد بن سلمة، والنضر بن شميل.

2. مذهب أهل الكوفة، ومن متقدمي نحاتهم: أبو جعفر الرؤاسي أستاذهم في النحو، ومعاذ الهراء، والكسائي، والفرّاء.

وتتبع هؤلاء النحاة كلام العرب ليستنبطوا منه قواعد النحو أو وجوه الاشتقاق، أو الأعاريض التي جاء الشعر عليها. وكان هذا الاستنباط يجرهم بالضرورة إلى نقد الشعر، لا من حيث عذوبته أو رقته أو جماله الفني ،وإنما من حيث مخالفته للأصول التي هداهم استقراؤهم إليها إن من جهة إعراب، أو في جهة وزن أو قافية . فانتقدوا شعراء الجاهلية وقالوا بوجود أخطاء في الصياغة لديهم . كما انتقدوا شعراء الإسلام وعابوا عليهم أخطاءهم في الأوزان والقوافي.

ويذهب كثير من الدّارسين إلى "أنّ النقد الأدبي في أواخر القرن الأوّل وبدايات القرن الثاني لم يكن حكرا على الأدباء وحدهم، بل شاركهم في ذلك طائفة من اللغويين والنحاة، ينتمي بعض منهم إلى مدرسة البصرة، وينتمي بعض إلى مدرسة الكوفة. وقد أسهم كثير من هؤلاء العلماء في جمع التراث اللغوي

عند العرب كما أفادوا من ثقافتهم اللغوية والنحوية في تصحيح كثير من الشواهد والنصوص الشعرية، التي لا تسير وفق قواعد اللغة ونحوها" [9].

وقد برز هذا الاتجاه النقدي بسبب ماجدّ من جديد في واقع المجتمع العربي حيث ظهر قوم يتكلّمون اللغة العربية تعلما لا سليقة وينقدون اللغة في صياغتها صناعة لا طبعا خالصا. كما كان لظهور اللحن الأثر الكبير في تسرب الفساد إلى اللغة العربية. وضمن هذه الأسباب ظهر نقاد لغويون أخذتهم الغيرة على لغتهم من أجل رعايتها والمحافظة عليها، وعلى نظام استعمالها على المنوال الذي كانت عليه عند أسلافهم القدماء، واعتمدوا في نقدهم للشعر على مدى سلامة الاستعمال اللغوي وسلامة شعر الشاعر من الأخطاء. "وراح هؤلاء النقاد يتتبعون كلام العرب القدماء الفصحاء ليستنبطوا منه قواعد النحو وجرّهم عملهم هذا إلى نقد الشعر" [10] لا من حيث مضمونه وجماله الفني، وإنّما من حيث مدى مطابقة لغة شعر الشاعر أو مخالفتها لأصول اللغة العربية الأم.

ويعتبر عبد الله بن إسحاق الحضرمي ويحي بن يعمر البصري وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء وهؤلاء من تلامذة أبي الأسود الدؤلي من أوائل اللغويين والنحاة الذين كانت لهم أخبار نقدية.

فقد تتبع عبد الله بن إسحاق الحضرمي وكان عالما كبيرا في اللغة والنحو، أشعار الفرزدق ونقده وتكلم في شعره . ومما يروى عنه في هذا المجال أنه سمع الفرزدق مرّة ينشد في مديحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام تضربهم بحاصب كنديف القطن منثور [11]

على عمائمنا يلقى وأرحلنا على زواحف تُزجى مُخها ريرِ [12]

فقال له ابن إسحاق الحضرمي: أسأت . إنما هي « رير » بالرفع . وكذلك قياس النحو في هذا الوضع. فلمّا ألحوا على الفرزدق قال: «على زواحف تزجيها محاسير ». ثم ترك الناس هذا ورجعوا إلى القول الأول . وعندما أكثروا الردّ على الفرزدق، هجا عبد الله بن إسحاق الحضرمي بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له ابن إسحاق : ولقد قلت أيضا في قولك : «مولى مواليا» وكان ينبغي إن تقول : « موّلى موال » [13]. فقد تجاوز ابن إسحاق هجاء الفرزدق له عندما سمعه يلحن في البيت نفسه الذي هجاه به، ودله على خطئه النحوي فيه ومما يروى أيضا عنه، أنه سمع الفرزدق ينشد :

وعضّ زمانّ يا ابن مروان لم يدع مـــــن المال إلاّ مسحتا أو مجلّف

فقال له ابن إسحاق: على أي شيء ترفع« مجلف»؟ فقال:على من يسوؤك وينوؤك [14]: وقد وقف ابن عبد ربه على هذا البيت، وعلى خبر ابن إسحاق مع الفرزدق فقال : "« وقد أكثر النحويون الاحتيال لهذا البيت، ولم يأتوا بشيء يرضي » " [15].

وقد روى المؤرخون ما وقع بين الحجاج ويحيى بن يعمر البصري. وكان الحجّاج من خطباء العرب المعدودين ومن بلغائهم وفصحائهم، فورد عليه بريد يزيد بن المهلّب الذي كتب إلى الحجّاج : لقينا العدوّ ففعلنا وفعلنا، واضطررناه إلى عرعرة الجبل. فقال الحجاج : ما لابن الملّهب وهذا الكلام؟ فقيل له إن يحيى بن يعمر عنده. فقال ذاك إذن . وحُكي أن الحجّاج قال له : أتجدني ألحن ؟ فقال يحيى نعم .فقال له في أي شيء ؟ فقال في كتاب الله. قال : قرأت (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم) [16].

فرفعت « أحبّ » وهو منصوب. فغضب الحجاج وقال : « لا تساكنني ببلد أنا فيه . ونفاه إلى خراسان، فولاّه يزيد بن المهلّب القضاء بها» [17].

فيحيى بن يعمر ينتقد الحجّاج، لا على أساس ما عنده من الحفظ والسليقة كما كان جاريا في السابق، بل على أساس ما لديه من علم في نحو اللغة. ولذلك نراه يستخدم مصطلحا نحويا في النقد لأوّل مرة، فيقول له «رفعت» كلمة من حقها «النصب»، وهذا ما أزعج الحجّاج، لأنه وجد نفسه مراقبا في

لغته وأدبه من قبل عالم لغوي أخذ علمه عن دراسة وإتقان لا عن طبع وسليقة يظن بهما .

وقد روى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء ،أنه كان يشبه «الأخطل بالنابغة لصحة شعره» [18]. غير أن أبا عمرو، واسمه زبّان بن العلاء بن عمار كان يفضل الفرزدق وينتصر له. وكان يشبهه بزهير بن أبي سلمى[19]. وعندما انتقده ابن إسحاق الحضرمي على قوله :

وعضّ زمانٌ يا ابن مروان لم يدع من المال إلاّ مسحتا أومجلّف

وقف أبو عمرو إلى جانب الفرزدق وقال له : «أصبت ! وهو جائز على المعنى ! »

فمدحه الفرزدق فقال :

مازلت أغلق أبوابا وافتحـــها حـــتى أتيت أبا عمـــرو بن عمّار

غير أن أبا عمرو بن العلاء، لم يسلم من لسان الفرزدق، إذ هجاه، ثم جاءه معتذرا إليه، فقال له أبو عمرو بن العلاء :

هجوت زبّان ثم جئت معتـــذرا مـــن هجو زبّان لم تهج لِم تدع ؟ [20]

والأصمعي يقرأ على أبي عمر بن العلاء شعر النابغة الذبياني فما أن يبلغ في وصف الناقة :

مقذوفة بدخيس النحض بازلها لها صريف صريف القعر بالمسد

يقول أبو عمر : ما أضر عليه في ناقته ما وصف، فقال له : كيف ؟ قال لأنّ صريف الفحول من النشاط وصريف الإناث من الإعياء والضجر .

وسئل يونس بن حبيب عن قول ابن قيس الرقيات :

ما مر يوم إلا وعندها لحم رجـــال أو بـالـــغان دمـا

فقال يونس: يجوز بولغان، ولا يجوز بالغان [21]

ولقد استطاعت حركة النقاد النحويين، أن تراقب بدقة شعر الشعراء في العصر الأموي، وأن تنتقد هذا الشعر في مواضع النقد، وتبين عن وجوه نقدها

وتعلل أسبابه نحوا وصرفا. كما أنها كانت تقيسه على ما عند أهل البادية من طبع وسليقة. وهذا ما حفز حركة الشعر والأدب وقوتها في العصر الأموي بعامة، ولدى أهل البصرة والكوفة بخاصة حيث كان يبلغ النشاط الأدبي والنقدي والشعري أوجه هناك.

وفي العصر العباسي كان النقد يعنى أيضا باللغة، أو ينطلق من اللغة في أحكامه الذوقية وربما مثّل المبرد هذا النقد في ملاحظته أنّ أبا العتاهية كان كثير السقوط واللحن : عن محمد بن يزيد المبرد، قال : كان أبو العتاهية - مع اقتداره في قول الشعر، وسهولته عليه - يكثر عثاره، وكان يلحن في شعره، ويركب جميع الأعاريض، وكثيرا ما يركب ما لا يخرج من العروض إذا كان مستقيما في الهاجس، فممّا أخطأ فيه قوله :

ولربّما سئل البخيـ ـل الشيء لا يسوى فتيلا

لأنّ الصواب لا يساوي، لأنّه من ساواه يساويه .

خاتمة: إنّ نقد النقاد اللغويين وبخاصة النحويين كما تجلّى لنا كان يرصد كلّ ما يتعارض في الشعر مع الأسلوب العربي الأصيل والصياغة البلاغية واللغوية دون أن يتعرّضوا لما في الشعر من أوجه جمالية فنية أو معانٍ قيمة تغذي العقل. وذلك هو نقد شكلي لغوي موضوعي بعيد عن الخيال والذاتية قائم على مراعاة استعمال اللغة في أصولها القديمة كما كانت عند الأسلاف. وهكذا لم يعد النقد مجرّد خطرات أو انطباعات شخصية إنّما أصبحت تتدخل فيه أطراف من الثقافات اللغوية والنحوية وغيرها.

الهوامش:

1 – د. عصام قصيحى : أصول النقد العربي القديم، منشورات جامعة حلب، 1411هـ 1991م، ص 6.

2 – عتيق عبد العزيز: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 34.

3 – الأصفهاني : الأغاني ج 9، ص 340 .

4 – قلايلية العربي : الأسس الفكرية لحصول الملكة اللغوية وأهميتها في العملية التعليمية، مجلة الخلدونية، العدد 1، 2006 م، ص 128 .

5 – د . قصي الحسيني : النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس لبنان، ط 1، 2003 م، ص 24.

6 – د . محمد طاهر درويش : في النقد الأدبي عند العرب، ص 68.

7 – عباس حسن : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 45.

8 – طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 30.

9 – د . عثمان موافي : دراسات في النقد العربي، دار المعرفة الجامعية، 2000، ص 30.

10 – د . قصي الحسيني : النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، ص 97.

11 – الحاصب : الريح الشديدة.

12 – مخها رير : مخها ذائب وفاسد من الضعف والهزال.

13 – الأغاني : ج 7، ص 349.

14 – ابن قتيبة : الشعر والشعراء، ج 1، ص 476.

15 – الأنباري : نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص 18.

16 – التوبة : 24.

17 – الحموي، ياقوت : معجم الأدباء، ج 20، ص 42.

18 – الأنباري : نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص 20.

19 – ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج 5، ص 362.

20 – الأنباري : نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص 24.

21 – ابن سلام : الطبقات، ص 16.